

التراث الحضاري ودور البحث في تمييزه

أ.د. محمد البشير شنياتي

رئيس المجلس العلمي لمعهد الآثار

تمهيد:

يقول علماء النفس أن الطفل أبو الرجل، كناية على أن الرجل امتداد الطفل وأن رواسب طفولته تطبع شخصيته في رجولته.

إن هذه الخاصية السيكولوجية للإنسان المتأصلة في الفرد تنطبق كذلك على أفراد الأمة مجتمعين. فالأمة في حاضرها هي حصيلة تطورها عبر العصور بحيث يتراكم في شخصيتها نسيج الماضي المكون من المؤثرات الثقافية المختلفة التي توالى عليها فشكلت هويتها المتميزة حاضرا. إن الحاضر وليد الماضي والمستقبل وليد اليوم. فالماضي حي لا يموت، وإن توارى عن أنظارنا، وحضوره فينا قائم في اللاشعور، وإحساسنا بالتاريخ نابع من هذه الكينونة

السيكولوجية، وتقديرنا لقيم الماضي تثنين لموروث حضاري لا يتوقف عن النمو والتراكم. هذا التراكم الذي يشكل مخزوننا ثميناً للذاكرة الفردية والجماعية، وتحمل الآثار موقعا بارزا فيه.

ذلك أن التراث الأثري يمثل شواهد مادية تنعش الذاكرة وتهيج المشاعر. والأمة التي تهمل تراثها تعرض نفسها لفقدان الذاكرة وإن فقدت ذاكرتها نسيت ماضيها وارتبكت في حاضرها وضلت سبيل مستقبلها. وقديما قال أحد مشاهير السياسة والأدب اللاتيني وهو شيشرون أن من لا يفهم تاريخ أمته يبقى جاهلا إلى الأبد. وهل من سبيل إلى فهم التاريخ من غير مسالة شواهد وهي شهوده؟

إن تثنين التراث الحضاري والحث على العناية به هو دعوة إلى انعاش الذاكرة الجماعية للأمة وتذكير أفراد المجتمع بمسؤوليتهم ازاء ما ورثوه عن أسلافهم من قيم مادية ومعنوية فيها دروس وعبر لهم ولن يأتي بعدهم.

تعريف:

يعرف التراث الحضاري (الثقافي) بأنه جميع الممتلكات الثقافية الثابتة منها والمنقولة التي ورثها الجيل الحالي عن الأسلاف ولها قيمة ثقافية (حضارية) غير عادية ولا يمكن تعويضها إن فقدت أو أتلقت. ومنها جميع الشخصيات الفنية ومنتوج الحرف (صناعات قديمة) واللوحات الفنية والمنحوتات والأثاث والخرف والأدوات ذات الطابع

التوثيقي (كتابات ...) والملبوسات والمنسوجات وغيرها مما كان يستعمل يوميا عند الأقدمين ويشكل عنصرا حضاريا في حياتهم. ثم المواقع الأثرية مدنية كانت أم ريفية والمعالم والصروح التاريخية التي أنشأها الإنسان ولها قيمة تاريخية أو جمالية أو فنية أو ثقافية أو علمية أو أدبية أو دينية تستوجب الحماية والتأمين.

ويصف بعضهم التراث بأنه مجموع التراكمات الناجمة عن سلوكيات اجتماعية واقتصادية ومهنية وفكرية وثقافية على مدى فترات زمنية معينة سادت فيها تلك السلوكيات ثم توقفت، ومن ثم لا يحق لنا تقييم هذه السلوكيات (الموروث) من حيث الجودة والفعالية في وقتنا الحاضر، بل يجب قبول ذلك على أنه رسالة صلة مع من مارسوا ذلك في الماضي وعلاقة قرابة معنوية معهم تستوجب منا العمل على إدامتها (الحفاظ عليها) والاستلها منهن.

إن كثيرا من عناصر الموروث الحضاري تمثل نموذجا مثاليا لبلوغ مستوى الكفاية في زماننا قياسا بعصرها، مثل العمارة التي بلغ بها أصحابها درجة الاكتمال في محيطها الجيو-حضاري وهو ما جعلها تتعدى الزمن الذي اشتهرت فيه من حيث القيمة الفنية (التقنية) والجمالية وتصبح موصوفة بالأزلية لأنها لم تعد تقبل مزيدا من التطوير والتنميق.

إن محاولة البحث في التراث هي سعي إلى كشف عن هذه الميزات التي تشكل وديعة غالية تزداد قيمتها بمرور الزمن في الوقت الذي تتناقص فيه قيمة الأشياء المتداولة الآيلة إلى الزوال. إن الأزلية صفة

ملازمة للموروث الثقافي في تقدير مجتمعا المعاصر المتميز بإغفاله الأشياء العابرة ويحرصه على تثمين موروثه الثقافي سعيا منه لتمتين صلته المعنوية بالماضي وتقوية جوانب الحس الحضاري لديه.

رسالة:

وبالنسبة إلينا كجزائريين فإن وطننا حباه الله بموروث حضاري شديد التنوع بالغ الثرى كثير الانتشار إلى درجة أن بعضهم وصف الجزائر بأنها متحف في الهواء الطلق كناية على كثافة المواقع والمعالم والشواهد الأثرية التي لا يخلو منها مكان، سواء في بلاد التل أو الصحراء. غير أن هذه الثروة الثمينة لم تحظ بالاهتمام المناسب لأسباب يطول شرحها وأغلبها معرف لدى الجميع. ومعروف كذلك أن تراثنا الأثري يتشكل من مخلفات متنوعة الهوية الحضارية ويغطي أحقابا ضاربة في القدم. ومن ثم فالنظرة العلمية إلى هذا الميراث يجب أن تؤسس على قناعة واضحة وهي أن ملكية الأمة الجزائرية لهذا التراث الحضاري هي في مرتبة ملكيتها للثروات الباطنية في أرضها، وأنه على الجيل الحاضر حماية هذا الإرث الثقافي وتبليغه للأجيال اللاحقة باعتباره أمانة ورسالة من الماضي يجب أن تبلغ إلى جميع الأجيال المتعاقبة.

إن الهدف من عقد هذا اللقاء المبارك هو إثارة الاهتمام، اهتماما جميعا كباحثين مختصين في حقل الآثار والتراث والتاريخ والحضارة أو قائمين على التراث في الوصاية المباشرة وغير المباشرة، إثارة

انتباه الجميع إلى مسؤوليتنا الكبرى إزاء هذه الوديعة الثمينة، والحث على تدارس السبل العلمية الكفيلة بالنهوض بهذا الإرث الغالي المهدد بالزوال.

وسيتطرق عدد كبير من الزملاء المشاركين إلى أهم القضايا العلمية المقترحة لهذا اللقاء. ونأمل أن يعقب العروض تعقيبات ثرية تساهم في تسليط الضوء على الجوانب الخفية في كل مسألة معروضة. وحتى لا أستبق الزملاء الباحثين في مكاشفاتهم العلمية حول القضايا المطروحة في برنامج هذا اللقاء أود أن أختصر كلامي في نقطتين، تتعلق إحداهما بالمساهمة المنتظرة من البحث الأثري في ميدان الكشف عن معطيات تاريخية تخص فترات هامة من تاريخنا الوطني، وتدور الأخرى حول صيانة التراث وتوظيفه.

من الموضوعات التي تشد انتباهنا كجزائريين ومختصين في أن واحد تلك الفترات المفصلية في تاريخ الجزائر والمغرب كله، مثل مرحلة التكون التاريخي السابقة للاحتكاك بالأمم المتوسطية (شرقية كانت أم غربية). وهي المرحلة الموصوفة، بفجر التاريخ Protohistoire بالمفهوم الذي أعطاه إياه المؤرخون الفرنسيون. وكذلك الشواهد الأثرية التي توثق الحضارية المتميزة للنوميديين عما سواهم من الأقوام الوافدة، ومن الشواهد التي شحت بها علينا الاكتشافات الأثرية حتى الآن تلك التي تتعلق بالعمارة المدنية وأشكال التمدن وشواهد التعبير الفني والديني والثقافي، إننا نتوق كمهتمين وباحثين إلى العثور على وثائق أثرية تقوي لدينا الحجة على أن أولئك الأسلاف القدماء لم يكتفوا

بمقاومة الوافدين المحتلين من الأمم الأخرى والاعتصام بمعاقل منيعة في انتظار تضعضع قوة الأعداء للإجهاز عليهم والعيث في منجزاتهم الحضارية. وهي الظاهرة التي ركز عليها المؤرخون واعتبرها بعضهم مظهرا بارزا في شخصيتنا السلبية إزاء المدنيات التي أتيحت لنا فرص الاستفادة منها في عدة مناسبات من التاريخ فأضعناها حسب زعمهم.

ومن أبرز الفجوات الغامضة في تاريخ الجزائر والمغرب العربي كله تلك المرحلة الممتدة ما بين الاحتلال البيزنطي والفتح العربي الإسلامي لخلوها من الشواهد الأثرية التي توثق الوقائع والأحداث وتساعد على استشفاف التحولات الكبرى بخروج المغرب من إقليم لاتيني الحضارة مسيحي المعتقد متوسطي الاتجاه إلى مغرب إسلامي الدين عربي اللسان مشرقي الانتماء. فالنصوص التاريخية العربية التي تصف الفتوحات وما تخللها من أحداث وتقلبات غير معاصرة للوقائع ومعتمدة على الرواية الشفوية. ومن صفات الأخبار المروية في تلك النصوص أن أغلبها لا يربط الواقعة بموقعها أي أن الخبر غير مجغرف. أي أنه غير مرتبط بمكان وأحيانا يفتقد إلى الزمان كذلك. فأي قصبة ملك الكاهنة، وأين كان يمارس كسيلة سيادته على قومه لما أسلم وبعد ما أفلت من عقبة ونكب به؟ لا شيء على أرض الواقع الأثري. إن اتصاف كثير من النصوص المرجعية بهذا النقص شكل عقبة في وجه المؤرخين المحققين وزاد في ثقل مهمة رجال الآثار، لأن الأمر أصبح معقودا على ما عسى أن يكتشفوا من شواهد مادية

تساعد على إكمال النقص وتصويب الخطأ، وهذا ما يشعر الآثاريين
بثقل المسؤولية إزاء التاريخ.

مساهمة:

أما النقطة الثانية المتعلقة بمساهمة البحث الأثري في صيانة
التراث وتوظيفه فإننا نجمل القول فيها كالآتي:

- القيام بجرد شامل للمباني الأثرية (الأطلال) والتراثية (التي لا
تزال مستعملة ولها صبغة تاريخية) لتقدير قيمتها قصد ترشيحها
للمحماية (أي تصنيفها: وضعها تحت طائلة القانون).

- القيام بتوثيق المباني التاريخية والتراثية تحسبا لتعرضها
للتدمير بفعل الكوارث الطبيعية أو التخريب البشري. وذلك باستعمال
التصوير المنتظم والرفع الهندسي الدقيق والوصف العيني لمادة البناء
وتقنياته، وأخذ العينات المخبرية والمخزونية استعدادا لاحتمال القيام
بترميم اضطراري لإنقاذ الأثر المعني.

- اعداد ملفات معلوماتية (بواسطة الحاسوب) أي تخزين المعطيات
عن المعالم، والقيام بدراسات تفصيلية عن بعض أصنافها كنماذج،
تسهيلا لمهمة القيام بإجراءات الصيانة والترميم، ويمكن أن تخص
هذه العملية القصور (المدن الصحراوية) المعرضة للزوال بوتيرة
متسارعة بفعل العوامل الطبيعية وهشاشة مادة بنائها والاهمال الذي
لحقها.

- تكوين بنك معلوماتية حول المواقع والمعالم التي يمكن استغلالها سياحيا وتستوجب التدخل لإكسابها وجها ملائما. والغرض هو تقديم النصح والاستشارة للسلطات المعنية بهذا الجانب من النشاط الاقتصادي كي تتجنب الإساءة للمعالم الأثرية إذا ما كان تدخلها عشوائيا لا يأخذ في الاعتبار مجموعة من الاحترازا والمخاطر المتعارف عليها علميا في هذا الميدان، كبناء الأكشاك أو صبغة الجدران الأثرية أو تكملة بنائها أو استعمال بعض المباني الأثرية لأغراض عملية يومية.

- القيام بجرد الوثائق الأثرية الكتابية والفنية وغيرها وخرزنها في الحاسوب بغرض تكوين ذخيرة توثيقية وتراثية تشكل مرجعا للدارسين والباحثين.

- إنجاز أطالس أثرية متنوعة تغطي التراث الأثري في كافة التراب الوطني.

تثمين:

إن توظيف التراث لا يتم بإعادة استخدام مكونات هذا التراث بذاتها لأن ذلك سلوك تخريبي للتراث. بل بالاطلاع عليه وتدوقه ثم القيام بمحاكاته، أي إنتاج ما يماثله أو ما يستلهم منه. ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق الدراسة العلمية لمكونات هذا التراث وإدراك الطرائق العملية التي كانت متبعة من طرف الصناع والحرفيين والفنانين

والبنائين وغيرهم. فالخزف والزليج والمنقوشات والعناصر الزخرفية المختلفة التي بلغ بها أصحابها درجة الاكتمال الأخاذ لا يمكن إعادة تشكيلها أو صنعها إلا بدراسة دقيقة ومفصلة لمادتها الخام والتقنيات المستعملة في تنفيذها وما إلى ذلك من مستوجبات المهنة والمهارة الفنية.

وما يقال عن الأدوات الفنية والعناصر الزخرفية الجمالية يقال عن المباني التراث المختلفة والمصنوعات المتنوعة. إن السعي إلى توظيف الأسلوب العلمي الواعي طريق إلى العناية به وصيانتها. إن هذه الطريقة الجديدة لتوظيف التراث الحضاري شاع استعمالها في مجال السياحة وأصبحت تدر مداخيل مالية على الحكومات والأفراد وقامت عليها حرف ومهن كثيرة كما هو الشأن في مصر والمغرب وتونس وإسبانيا وغيرها من البلدان الغنية بالمعالم الأثرية والمتحف الفنية الثمينة. ففي تونس مثلاً قامت حرفة نجارة الحجارة ونحتها وتشكيلها على الطريقة الرومانية وإكسابها ملامح جمالية معاصرة يتطلبها الذوق الجديد فيقبل على اقتنائها بناء الدور الفخمة لتزين الواجهات.

أما في مصر فلا حاجة للقول بأن الزائر الجديد يندهش لكثرة وتنوع المقتنيات السياحية المستمدة من التراث الأثري من ورق البردي إلى المصنوعات الجلدية والمعدنية التي يخالها المرء أصيلة لفرد المهارة في التقليد. فما مصدر هذه المهارة؟ إن مخابر وورشات كلية الآثار بجامعة القاهرة تعد مصدر كثير من اليد العاملة المنفذة لتلك المصنوعات السياحية المستمدة من التراث الأثري المصري. إن كثيراً

من خريجي الكلية في إختصاص الصيانة والترميم فتحوا مصانع لهم ووظفوا معارفهم ومهاراتهم التي اكتسبوها في ورشات الترميم خلال دراستهم بالكلية. ذلك أن البحث في ميدان الصيانة والترميم يقتضي دراسة الأثر ومكوناته وإدراك طريقة صنعه أو إنشائه وخصائص مادته الخام واتقان طريقة إعادة تشكيل نموذج مماثل للأثر نفسه. وهذا ما يجعل الطلاب يطلعون على أسرار المهنة ويسيطرون على كيفية تقليدها.

وأخيرا إننا نلاحظ ابتعادا مخيفا للمعماريين عندنا عن طرز وأساليب العمارة التراثية في الجزائر فهلا تنبهوا لهذا السلوك الذي يساهم في قطع صلتنا بمكونات حضارتنا ويكرس فينا ظاهرة الاستيلاء والضياع. أليس من مسؤولية المعماري الأخلاقية إزاء أمتة أن يمكن بني جيله من تحسس صلتهم بالتراث من خلال لمسات معمارية تجسد هذه الصلة؟

إننا نتطلع إلى ذلك اليوم الذي نستعيد فيه وعينا بقيمنا الحضارية ونسترجع فيه قدرتنا على التأمل وإمعان النظر في شواهد هذه القيم المتناثرة حولنا. كما نتوق إلى رؤية جيل يجيد أفراده قراءة متذوقة لواجهة معلم تاريخي أو قطعة متحفية مثلما يتذوق قصيدة شعر جميلة أو منظرا طبيعيا خلابا. لكن هذا لا يتأتى سوى من خلال برامج تربوية مشبعة بهذه القيم الحضارية العالية.

السيكولوجية، وتقديرنا لقيم الماضي تتمين لموروث حضاري لا يتوقف عن النمو والتراكم. هذا التراكم الذي يشكل مخزوننا ثميناً للذاكرة الفردية والجماعية، وتحمل الآثار موقعا بارزا فيه.

ذلك أن التراث الأثري يمثل شواهد مادية تنعش الذاكرة وتبهج المشاعر. والأمة التي تهمل تراثها تعرض نفسها لفقدان الذاكرة وإن فقدت ذاكرتها نسيت ماضيها وارتبكت في حاضرها وضلت سبيل مستقبلها. وقديما قال أحد مشاهير السياسة والأدب اللاتيني وهو شيشرون أن من لا يفهم تاريخ أمته يبقى جاهلا إلى الأبد. وهل من سبيل إلى فهم التاريخ من غير مسالة شواهدة وهي شهوده؟

إن تسمين التراث الحضاري والحث على العناية به هو دعوة إلى انعاش الذاكرة الجماعية للأمة وتذكير أفراد المجتمع بمسؤوليتهم ازاء ما ورثوه عن أسلافهم من قيم مادية ومعنوية فيها دروس وعبر لهم ولن يأتي بعدهم.

تعريف:

يعرف التراث الحضاري (الثقافي) بأنه جميع الممتلكات الثقافية الثابتة منها والمنقولة التي ورثها الجيل الحالي عن الأسلاف ولها قيمة ثقافية (حضارية) غير عادية ولا يمكن تعويضها إن فقدت أو أُلغيت. ومنها جميع الشخصيات الفنية ومنتوج الحرف (صناعات قديمة) واللوحات الفنية والمنحوتات والأثاث والخزف والأدوات ذات الطابع

التوثيقي (كتابات ...) والملبوسات والمنسوجات وغيرها مما كان يستعمل يوميا عند الأقدمين وبشكل حضاريا في حياتهم. ثم المواقع الأثرية مدنية كانت أم ريفية والمعالم والصروح التاريخية التي أنشأها الإنسان ولها قيمة تاريخية أو جمالية أو فنية أو ثقافية أو علمية أو أدبية أو دينية تستوجب الحماية والتنمية.

ويصف بعضهم التراث بأنه مجموع التراكمات الناجمة عن سلوكيات اجتماعية واقتصادية ومهنية وفكرية وثقافية على مدى فترات زمنية معينة سادت فيها تلك السلوكيات ثم توقفت، ومن ثم لا يحق لنا تقييم هذه السلوكيات (الموروث) من حيث الجودة والفعالية في وقتنا الحاضر، بل يجب قبول ذلك على أنه رسالة صلة مع من مارسوا ذلك في الماضي وعلاقة قرابة معنوية معهم تستوجب منا العمل على إدامتها (الحفاظ عليها) والاستلها منهن.

إن كثيرا من عناصر الموروث الحضاري تمثل نموذجا مثاليا لبلوغ مستوى الكفاية في زماننا قياسا بعصرها، مثل العمارة التي بلغ بها أصحابها درجة الاكتمال في محيطها الجيو-حضاري وهو ما جعلها تتعدى الزمن الذي اشتهرت فيه من حيث القيمة الفنية (التقنية) والجمالية وتصبح موصوفة بالأزلية لأنها لم تعد تقبل مزيدا من التطوير والتنميق.

إن محاولة البحث في التراث هي سعي إلى كشف عن هذه الميزات التي تشكل وديعة غالية تزداد قيمتها بمرور الزمن في الوقت الذي تتناقص فيه قيمة الأشياء المتداولة الآيلة إلى الزوال. إن الأزلية صفة

ملازمة للموروث الثقافي في تقدير مجتمعنا المعاصر المتميز بإغفاله الأشياء العابرة وبحرصه على تميم موروثه الثقافي سعياً منه لتمتين صلته المعنوية بالماضي وتقوية جوانب الحس الحضاري لديه.

رسالة:

وبالنسبة إلينا كجزائريين فإن وطننا حباه الله بموروث حضاري شديد التنوع بالغ الثرى كثير الانتشار إلى درجة أن بعضهم وصف الجزائر بأنها متحف في الهواء الطلق كناية على كثافة المواقع والمعالم والشواهد الأثرية التي لا يخلو منها مكان، سواء في بلاد التل أو الصحراء. غير أن هذه الثروة الثمينة لم تحظ بالاهتمام المناسب لأسباب يطول شرحها وأغلبها معرف لدى الجميع. ومعروف كذلك أن تراثنا الأثري يتشكل من مخلفات متنوعة الهوية الحضارية ويغطي أحقاباً ضارية في القدم. ومن ثم فالنظرة العلمية إلى هذا الميراث يجب أن تؤسس على قناعة واضحة وهي أن ملكية الأمة الجزائرية لهذا التراث الحضاري هي في مرتبة ملكيتها للثروات الباطنية في أرضها، وأنه على الجيل الحاضر حماية هذا الإرث الثقافي وتبليغه للأجيال اللاحقة باعتباره أمانة ورسالة من الماضي يجب أن تبلغ إلى جميع الأجيال المتعاقبة.

إن الهدف من عقد هذا اللقاء المبارك هو إثارة الاهتمام، اهتماماً جميعاً كباحثين مختصين في حقل الآثار والتراث والتاريخ والحضارة أو قانمين على التراث في الوصاية المباشرة وغير المباشرة، إثارة

انتباه الجميع إلى مسؤوليتنا الكبرى إزاء هذه الوديعة الثمينة، والحث على تدارس السبل العلمية الكفيلة بالتهوض بهذا الإرث الغالي المهدد بالزوال.

وسيتطرق عدد كبير من الزملاء المشاركين إلى أهم القضايا العلمية المقترحة لهذا اللقاء. ونأمل أن يعقب العروض تعقيبات ثرية تساهم في تسليط الضوء على الجوانب الخفية في كل مسألة معروضة. وحتى لا أستبق الزملاء الباحثين في مكاشفاتهم العلمية حول القضايا المطروحة في برنامج هذا اللقاء أود أن أختصر كلامي في نقطتين، تتعلق إحداهما بالمساهمة المنتظرة من البحث الأثري في ميدان الكشف عن معطيات تاريخية تخص فترات هامة من تاريخنا الوطني، وتدور الأخرى حول صيانة التراث وتوظيفه.

من الموضوعات التي تشد انتباهنا كجزائريين ومختصين في أن واحد تلك الفترات المفصلية في تاريخ الجزائر والمغرب كله، مثل مرحلة التكون التاريخي السابقة للاحتكاك بالأمم المتوسطية (شرقية كانت أم غربية). وهي المرحلة الموصوفة، بفجر التاريخ Protohistoire بالمفهوم الذي أعطاه إياه المؤرخون الفرنسيون. وكذلك الشواهد الأثرية التي توثق الحضارية المتميزة للنوميديين عما سواهم من الأقوام الوافدة، ومن الشواهد التي شحت بها علينا الاكتشافات الأثرية حتى الآن تلك التي تتعلق بالعمارة المدنية وأشكال التمدن وشواهد التعبير الفني والديني والثقافي، إننا نتوق كمهتمين وباحثين إلى العثور على وثائق أثرية تقوي لدينا الحجة على أن أولئك الأسلاف القدماء لم يكتفوا

بمقاومة الوافدين المحتلين من الأمم الأخرى والاعتصام بمعقل منيعة في انتظار تضعضع قوة الأعداء للإجهاز عليهم والعيث في منجزاتهم الحضارية. وهي الظاهرة التي ركز عليها المؤرخون واعتبروها بعضهم مظهرا بارزا في شخصيتنا السلبية إزاء المدينيات التي أتيحت لنا فرص الاستفادة منها في عدة مناسبات من التاريخ فأضعفناها حسب زعمهم.

ومن أبرز الفجوات الغامضة في تاريخ الجزائر والمغرب العربي كله تلك المرحلة الممتدة ما بين الاحتلال البيزنطي والفتح العربي الإسلامي لخلوها من الشواهد الأثرية التي توثق الوقائع والأحداث وتساعد على استشفاف التحولات الكبرى بخروج المغرب من إقليم لاتيني الحضارة مسيحي المعتقد متوسطي الاتجاه إلى مغرب إسلامي الدين عربي اللسان مشرقي الانتماء. فالنصوص التاريخية العربية التي تصف الفتوحات وما تخلها من أحداث وتقلبات غير معاصرة للوقائع ومعتمدة على الرواية الشفوية. ومن صفات الأخبار المروية في تلك النصوص أن أغلبها لا يربط الواقعة بموقعها أي أن الخبر غير مجغرف. أي أنه غير مرتبط بمكان وأحيانا يفتقد إلى الزمان كذلك. فآئن قصة ملك الكاهنة، وأئن كان يمارس كسيلة سيادته على قومه لما أسلم وبعد ما أفلت من عقبة ونكب به؟ لا شيء على أرض الواقع الأثري. إن اتصاف كثير من النصوص المرجعية بهذا النقص شكل عقبة في وجه المؤرخين المحققين وزاد في ثقل مهمة رجال الآثار، لأن الأمر أصبح معقودا على ما عسى أن يكتشفوا من شواهد مادية

تساعد على إكمال النقص وتصويب الخطأ، وهذا ما يشعر الآثاريين
بثقل المسؤولية إزاء التاريخ.

مساهمة:

أما النقطة الثانية المتعلقة بمساهمة البحث الأثري في صيانة
التراث وتوظيفه فإننا نجمل القول فيها كالآتي:

- القيام بجدد شامل للمباني الأثرية (الأطلال) والتراثية (التي لا
تزال مستعملة ولها صبغة تاريخية) لتقدير قيمتها قصد ترشيحها
للحماية (أي تصنيفها: وضعها تحت طائلة القانون).

- القيام بتوثيق المباني التاريخية والتراثية تحسبا لتعرضها
للتدمير بفعل الكوارث الطبيعية أو التخريب البشري. وذلك باستعمال
التصوير المنتظم والرفع الهندسي الدقيق والوصف العيني لمادة البناء
وتقنياته، وأخذ العينات المخبرية والمخزونية استعدادا لاحتمال القيام
بترميم اضطراري لإنقاذ الأثر المعني.

- اعداد ملفات معلوماتية (بواسطة الحاسوب) أي تخزين المعطيات
عن المعالم، والقيام بدراسات تفصيلية عن بعض أصنافها كنماذج،
تسهيلا لمهمة القيام بإجراءات الصيانة والترميم، ويمكن أن تخص
هذه العملية القصور (المدن الصحراوية) المعرضة للزوال بوتيرة
متسارعة بفعل العوامل الطبيعية وهشاشة مادة بنائها والاهمال الذي
لحقها.

- تكوين بنك معلوماتية حول المواقع والمعالم التي يمكن استغلالها سياحيا وتستوجب التدخل لإكسابها وجها ملائماً. والغرض هو تقديم النصح والاستشارة للسلطات المعنية بهذا الجانب من النشاط الاقتصادي كي تتجنب الإساءة للمعالم الأثرية إذا ما كان تدخلها عشوائياً لا يأخذ في الاعتبار مجموعة من الاحترازات والمحاذير المتعارف عليها علمياً في هذا الميدان، كبناء الأكشاك أو صباغة الجدران الأثرية أو تكملة بنائها أو استعمال بعض المباني الأثرية لأغراض عملية يومية.

- القيام بجرد الوثائق الأثرية الكتابية والفنية وغيرها وخبزنها في الحاسوب بغرض تكوين ذخيرة توثيقية وتراثية تشكل مرجعاً للدارسين والباحثين.

- إنجاز أطالس أثرية متنوعة تغطي التراث الأثري في كافة التراب الوطني.

تـثـمـين:

إن توظيف التراث لا يتم بإعادة استخدام مكونات هذا التراث بذاتها لأن ذلك سلوك تخريبي للتراث. بل بالاطلاع عليه وتدوقه ثم القيام بمحاكاته، أي إنتاج ما يماثله أو ما يستلهم منه. ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق الدراسة العلمية لمكونات هذا التراث وإدراك الطرائق العملية التي كانت متبعة من طرف الصناع والحرفيين والفنانين

والبنائين وغيرهم. فالخزف والزليج والمنقوشات والعناصر الزخرفية المختلفة التي بلغ بها أصحابها درجة الاكتمال الاخذ لا يمكن إعادة تشكيلها أو صنعها إلا بدراسة دقيقة ومفصلة لمادتها الخام والتقنيات المستعملة في تنفيذها وما إلى ذلك من مستوجبات المهنة والمهارة الفنية.

وما يقال عن الأدوات الفنية والعناصر الزخرفية الجمالية يقال عن المباني التراث المختلفة والمصنوعات المتنوعة، إن السعي إلى توظيف الأسلوب العلمي الواعي طريق إلى العناية به وصيانته، إن هذه الطريقة الجديدة لتوظيف التراث الحضاري شاع استعمالها في مجال السياحة وأصبحت تدر مداخيل مالية على الحكومات والأفراد وقامت عليها حرف ومهن كثيرة كما هو الشأن في مصر والمغرب وتونس وإسبانيا وغيرها من البلدان الغنية بالعالم الأثري والتحف الفنية الثمينة. ففي تونس مثلاً قامت حرفة نجارة الحجارة ونحتها وتشكيلها على الطريقة الرومانية وإكسابها ملامح جمالية معاصرة يتطلبها الذوق الجديد فيقبل على اقتنائها بناءً الدور الفخمة لتزين الواجهات.

أما في مصر فلا حاجة للقول بأن الزائر الجديد يندهش لكثرة وتنوع المقتنيات السياحية المستمدة من التراث الأثري من ورق البردي إلى المصنوعات الجلدية والمعدنية التي يخالها المرء أصيلة لفرد المهارة في التقليد. فما مصدر هذه المهارة؟ إن مخابر وورشات كلية الآثار بجامعة القاهرة تعد مصدر كثير من اليد العاملة المنفذة لتلك المصنوعات السياحية المستمدة من التراث الأثري المصري. إن كثيراً

من خريجي الكلية في إختصاص الصيانة والترميم فتحوا مصانع لهم ووظفوا معارفهم ومهاراتهم التي اكتسبوها في ورشات الترميم خلال دراستهم بالكلية. ذلك أن البحث في ميدان الصيانة والترميم يقتضي دراسة الأثر ومكوناته وإدراك طريقة إعادة تشكيل نموذج مماثل للأثر نفسه. مادته الخام وإتقان طريقة إعادة تشكيل نموذج مماثل للأثر نفسه. وهذا ما يجعل الطلاب يطلعون على أسرار المهنة ويسيطرون على كيفية تقليدها.

وأخيرا إننا نلاحظ ابتعادا مخيفا للمعماريين عندنا عن طرز وأساليب العمارة التراثية في الجزائر فهلا تنبهوا لهذا السلوك الذي يساهم في قطع صلتنا بمكونات حضارتنا ويكرس فينا ظاهرة الاستيلاء والضياح. أليس من مسؤولية المعماري الأخلاقية إزاء أمتة أن يمكن بني جيله من تحسس صلتهم بالتراث من خلال لمسات معمارية تجسد هذه الصلة؟

إننا نتطلع إلى ذلك اليوم الذي نستعيد فيه وعينا بقيمتنا الحضارية ونسترجع فيه قدرتنا على التأمل وإمعان النظر في شواهد هذه القيم المتناثرة حولنا. كما نتوق إلى رؤية جيل يجيد أفرادة قراءة متذوقة لواجهة معلم تاريخي أو قطعة متحفية مثلما يتذوق قصيدة شعر جميلة أو منظرا طبيعيا خلابا. لكن هذا لا يتأتى سوى من خلال برامج تربوية مشبعة بهذه القيم الحضارية العالية.